

أهل هذه المنطقة كانوا مسالمين يمثلون حلقة اتصال بين الشعوب

القرصنة العربية في الخليج.. أكذوبة تاريخية

بقلم الشيخ د.سلطان بن محمد القاسمي:

على مدى ثلاثة أرباع قرن ومنذ أن ألف ج.ج.لوريمر كتابه الكبير عن الخليج ساد تشويبه المتعمد لتاريخ شبه الجزيرة العربية والخليج ولم يناقشه أو يعترض عليه أحد. ونسي الناس تماماً أن لوريمر كتب كتابه بتكليف من اللورد كيرزن Lord Curzon نائب ملك بريطانيا في الهند الذي عهد إليه أن يكتبه دفاعاً عن تاريخ الاستعمار البريطاني الطويل في الخليج.

ولقد كان لوريمر موظفاً مدنياً في حكومة الإمبراطورية البريطانية في الهند فلم يكن يتوقع أن يكون باحثاً محايداً في شؤون حكومته. وتعود شهرة كتابه إلى أنه تمكن من الاطلاع على الوثائق المتصلة بالموضوع لكن العيب في عمله هو أن لوريمر لم ينتفع بتلك الميزة كما كان ينبغي بل أنه استطاع بسلطته المرجعية الاستفادة من ذلك الاطلاع أن يعرض الأكاذيب والشائعات على أنها حقائق لا تقبل الجدل. وكانت طريقة تأليفه انتقائية إلى حد بعيد. وتعهد إلى خدمة غرضه بقدر يجعل عمله محرّفاً مشبوهاً. وليس من الصعب أن نفهم السبب وراء الجهد الذي استثمره في ترجمته إلى اللغة العربية فقد ساعد ذلك الجهد على نشر وجهة النظر الاستعمارية البريطانية.

من الغريب أيضاً أن الدكتور ج.ب. كيلي في كتابه بريطانيا والخليج الفارسي: ١٧٧٥ - ١٨٨٠ موضع لوريمر في قائمة المصادر الوثائقية المطبوعة.

إن كيلينفسه يعترف قائلاً إن عدداً من مجموعات الوثائق والمخطوطات في دائرة الخارجية بحكومة الهند معظمها وضعه ج.أ. جمعت استعداداً لتأليف القسم التاريخي من القاموس الجغرافي ومع أنها تحوي نخبة كبيرة من الرسائل من سجلات حكومة الهند وحكومة بومبي عن شؤون الخليج فإن بها قدراً كبيراً من الحذف والإغفال ولا يمكن دائماً الاعتماد على صحتها التاريخية.

ومن الصعب أن نوفق بين اعتراف كيلي هذا وبين تصنيفه لكتاب لوريمر واستعماله له على أنه مصدر وثائقي لكن كان غرض كيلي أن يدعم لا أن يعارض كتاب لوريمر. ويمكن أن نقول أنه كان ملكياً أكثر من الملك. وان تبنيه لوجهة النظر الاستعمارية بلا مناقشة يكاد يفوق ما نجد لدى الموظفين الاستعماريين أنفسهم. فقد ذكر فرانسيس واردن سكرتير حكومة بومبي في مذكرته الشهيرة في عام ١٨١٩م أن القرصنة لم تكن محلية من بيئة الخليج أما كيلي فيقول بتعميم مطلق: على مدى القرون اكتسبت قبائل الشاطئ الجنوبي للخليج شهرة بأنهم قرصان وفي رأيي أنه ليس فيما قاله كيلي أي قدر من الصدق على الإطلاق فلقد كان الخليج دائماً هادئاً مسالماً وكان حلقة اتصال بين الشعوب المقيمة على جانبيه أكثر مما كان حاجزاً يفرقهم.

ومع أن كيلي يتابع لوريمر في تعداد حوادث القرصنة ويكاد ينسبها جميعاً إلى القواسم «دون أن يقدم دليلاً على ذلك» يبدو متردداً بين رأيين متعارضين فهو يؤكد إلى حد كبير نتج عن أعمال القواسم الجريئة أن ساحل الشمال من الرسم إلى ما وراءها جنوباً أصبح يعرف لدى الأوروبيين باسم ساحل القرصنة وأنه كان يجب أن يقال في معرض الدفاع عن القواسم أنهم إلى



تجارية بريطانية في الخليج وكان قد وقع اختياره على جزيرة خرج فقرر أن يشن حملة يحتل بها تلك الجزيرة لإقامة قاعدته ثم تحول رأيه إلى جزيرة قشم. لكن جزيرة قشم بها قاعدة للقواسم وقبالتها لنجة قاعدة أخرى للقواسم فلا بد إن من تحطيم قوة القواسم في رأس الخيمة.

ولإيجاد مبرر لذلك قامت شركة الهند الشرقية البريطانية بإشاعة مسألة القرصنة في الخليج. وفي نوفمبر ١٨٠٩م بدأت القوات البريطانية بحرق سفن القواسم وتحطيم قوتهم. وفي يناير ١٨١٠م استقبل جون مالكولم تلك الحملة على جزيرة قشم وأقام قاعدته وأخيراً في سنة ١٨٢٠م خلقوا في الخليج وضعا لم يختلف عن حرب السويس سنة ١٩٥٦م ولعل الفارق الوحيد بينهما أن عملية الخليج حطمت القواسم.

إن وصف القواسم بأنهم قرصنة ظلم أوقع عليهم وربما أمكن فهمه في ظروف ذلك الوقت أما أن يصبح هذا الوصف الكاذب حقيقة مقبولة يروجها المؤرخون وينشرونها فذلك يعطي صورة مؤسفة لا تشرف مستوى البحث في تاريخ الخليج.

ولعل أقل الباحثين جرماً في هذا المضمار هو س.ر.لو مؤلف كتاب تاريخ البحرية الهندية الذي نشر سنة ١٨٧٧م في قمة الاستعمار البريطاني لتجيده والاحتفال بانتصارات قواته. وينتسب لوريمر أساساً إلى هذه المدرسة نفسها وهو قد استنسخ قدراً كبيراً من الحكايات الخيالية من كتاب لو.

ولم يكن تشارلز بلجريف أثناء إقامته في البحرين لما يقرب من ثلاثين سنة شخصاً محبوباً في الخليج. وكتابه ساحل القرصنة لم يدعم سمعته ولا مصداقيته في الخليج. ومع أن المرء لا يستطيع أن ينهمه بالانتحال والسرقة فإن كتابه قد بني إلى حد كبير على مذكرات كابتن فرانسيس لوخ وهو من أشد ضباط البحرية طيشاً وتهوراً في الخليج سنة ١٨١٩م مع قدر كبير أخذه بلجريف اعتباراً من كتاب لوريمر. ومما يزيد في الخلط أن بلجريف أضاف ملاحظاته المغرضة المنحيزة تلك.

وقد وضع المقدم هـ. موبس. بارتليت لكتابه عنواناً مضللاً هو قرصنة عمان المتصالحه. وفي هذا الكتاب حصر المؤلف نفسه في مسألة ثانوية هي عمل ومحكمة كابتن ت. تومسون الذي قام حقه الرئيسي في الشهرة على الخطأ الأحمق الذي ارتكبه في الحملة على آل بو علي سنة ١٨٢٠م وحتى في هذا النطاق المحدود لا يضيف الكتاب شيئاً ذا بال لمعلوماتنا عن الموضوع.

ودراسة دونالد هولبي بعنوان الامارات المتصالحه تبعها عدد من الكتب كان اسهامها الرئيسي هو تلخيص ما كتب من قبل عن دول الخليج وعلى الأخص ما كتبه لوريمر وكيلي.

وتهدف دراستنا هذه إلى تقديم تفسير أكثر موضوعية ومنطقية للتطورات التي حدثت في الخليج في العقدين الأولين من القرن التاسع عشر وتلك التطورات التي وطدت لبريطانيا في الخليج وجعلتها القوة المسيطرة فيه ودام ذلك الوضع ١٥٠ سنة وكان السمة الرئيسية لتاريخ الخليج حتى وقت قريب. هذا النص هو مقدمة كتاب الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي المعنون: القواسم والعدوان البريطاني (١٧٩٧ - ١٨٢٠م) منشورات القاسمي الشارقة الامارات العربية المتحدة ٢٠١٢م.

استعداد لأن يسايروا ذلك التحالف لكن بلا حماس رغم جهود ديفيد سيتون المقيم البريطاني في مسقط لإقناع رؤسائه بمزايا تلك السياسة. وتبين لحكومة الشركة في بومبي أن المعارضة الحقيقية لخطتها في الخليج ستجنيء من القواسم لكن الحكومة كانت تعلم أيضاً أنها لا تملك السفن الحربية الكافية لهزيمة أسطول القواسم القوي. وقد لا يكون العون الذي يستطيع أن يقدمه العمانيون كبيراً لكن المؤكد أنه لا ضير من استعمال مسقط ضد رأس الخيمة على الأقل إلى أن تتمكن الشركة من حشد القوة الكافية للتغلب على القواسم.

ولتحقيق ذلك الهدف لزم حشد دوائر صنع القرار في حكومة بومبي وحكومة الهند بل وحكومة الإمبراطورية نفسها ضد العدو. ولهذا شن موظفو الشركة حملة جماعية منسقة لعرض صورة القواسم أو بالأحرى تشويه صورة القواسم - وكانهم قرصنة تشكل أعمالهم في القرصنة والنهب تهديداً خطيراً لجميع النشاطات البحرية في المحيط الهندي والمياه المجاورة. وأي بلية وقعت لأي سفينة عزوها على نحو بارز إلى قرصنة القواسم.

وعلى هذا النحو تم تدبير استراتيجية أكذوبة الكبرى. وبين عشية وضحاها أصبحت كلمة القواسم مرادفة لكلمة قرصان بل إن بلاد القواسم صارت تسمى ساحل القرصنة بدلاً من الساحل العربي أو بدلاً من الصير - وهو الاسم الأقل استعمالاً وأصبح القتال ضد القرصنة هتاف المعركة وإذا لم تقع حوادث اخترعت حوادث ونسبت إلى أولئك القرصنة المتخيلين. ولقد قال فيليب فرانسيس عضو البرلمان البريطاني في ذلك الوقت في مناقشة بمجلس العموم عن شؤون الشركة:

كلما وجد الحاكم العام والمجلس ميلاً في أنفسهم إلى شن حرب على جيرانهم استطاعوا في كل وقت أن يلقفوا حجة تناسب غرضهم ينطبق ذلك القول على القواسم فبعدما وقع جون مالكولم اتفاقية مع السيد سلطان بن أحمد امام عمان في شهر يناير سنة ١٨٠٠م وفي نفس الوقت اتفاقية أخرى مع إيران حينها أطلق مشروعه بإقامة قاعدة

البريطاني الذين علموا جيداً - وكثيراً ما شهدوا - أن أهل الخليج المحليين لم يهتموا إلا بالممارسة السلمية لأعمال صيد اللؤلؤ والتجارة.

وقد تمكن المدافعون عن الاستعمار البريطاني من نشر القول بأن قرب نهاية القرن الثامن عشر وفي العقدين الأولين من القرن التاسع عشر كان عرب الخليج - ولاسيما القواسم - منهمكين بحماس في منهج قرصنة ضخم ضد التجارة الدولية لا في الخليج فقط بل في البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي.

ويجادل المدافعون عن الاستعمار بأن ذلك التغير المفاجئ في سلوك العرب حدث لأن القرصنة استمدوا العون والتأييد من القوة السعودية المتصاعدة التي اعتنق عرب الخليج - وخصوصاً القواسم - مذهبها بحماس. والمؤيدون لهذه الحجة يريدون منا أن نؤمن بأنه لم ينقذ عرب الخليج من تلك المهنة الشنيعة إلا الجهود الخيرة لشركة الهند الشرقية البريطانية التي كان تدخلها في الخليج لهدف وحيد هو الحفاظ على القانون والنظام. وسيطرة بريطانيا على الخليج التي نتجت عن ذلك ودامت قرابة قرن ونصف من الزمان إنما كانت مسؤولة ألقبت على كاهل بريطانيا على كره منها تقريباً.

أما رأيي فهو أن شركة الهند الشرقية كانت مصممة على أن تزيد حصنها من تجارة الخليج بكل الوسائل الممكنة وأي زيادة في نصيب الشركة إنما تكون على حساب المواطنين من عرب الخليج: العتوب والعمانيين والقواسم. وقد استطاع العتوب في أعلى الخليج أن يقيموا تجارة مزدهرة مع الهند مباشرة متجنبين تماماً حرب أسفل الخليج: القواسم والعمانيين. أما العمانيون فقد أرادوا أن يجعلوا من أنفسهم القوة العربية المسيطرة في الخليج لكن محاولاتهم لتدمير العتوب واحتلال قاعدتهم في البحرين باءت بالفشل ولم تكن لديهم القوة البحرية الكافية لتحطيم القواسم. وقد أغرامهم هذا بمحاولة التحالف مع البريطانيين ضد القواسم.

أما البريطانيون أي الشركة فكانوا على

حد كبير اكتسبوا تلك السمعة نتيجة نضالهم المتطاوول مع آل بوسعيد حكام مسقط.

ومن الغريب أن كيلي وكند مقاومة القواسم المستمرة لمحاولات حكام مسقط السيطرة عليهم ومع ذلك يقتبس في نفس اللحظة تقريباً كلام جون مالكولم John Malcolm وهو يروي ملاحظات خادمه الفارسي عن القواسم سنة ١٨٠٨م فيقول: إن حرفتهم هي القرصنة ومسرّتهم في القتل وهم يزيدون الأمر سوءاً بأن يذكروا لك أنقى الأسباب لما يرتكبون من أعمال الشر والخسة.. وإذا وقعت في يدهم أسيراً وعرضت عليهم كل ما تملك لتتقذ حياتك قالوا: كلا فالقرآن يحرم نهب الحي لكنه لا يحرم علينا أن نسلب الميت ما معه. وإذا يقولون ذلك يدقون رأسك. لكن ماذا تقول؟ إن العيب لا يقع كله عليهم فهم إنما انحدروا من نسل غول أو وحش.

وفي رأي كيلي إن القواسم ليسوا وحدهم الخارجين عن العادة بل إن الموقف كله في الخليج خصوصاً في أمر القرصنة يفوق التفسير وهكذا يجادل قائلاً:

يُظن عموماً أن من آثار القرصنة أضعاف التجارة لكن لم يكن الحال هكذا في الخليج قبل سنة ١٨٢٠م. كذلك لا تنطبق اللازمة الطبيعية لهذا بعد سنة ١٨٢٠م. فإنقاص القرصنة لم يتبعه انتعاش التجارة. ولعل العلاقة التي تقوم بين القرصنة والتجارة - كتلك التي قامت بين القواسم وآل خليفة قبل سنة ١٨٢٠م - قد عملت على استثثناء الخليج من القوانين الطبيعية للتجارة.

هذا النوع من التفسير إنما يساعد على تأكيد سوء الفهم تماماً لتاريخ المنطقة والعوامل التي كانت تعمل فيها. إن أهل الخليج بشر عاديون لهم طموحاتهم البشرية العادية وكانوا رغم فقرهم مهرة. لقد كانوا قوما ذوي نشاطات إنسانية طبيعية في تجارة خاصة مارسوها آلاف السنين. وكان العامل الوحيد غير الطبيعي هو دخول قوم أجانب عليهم هدفهم السيطرة والاستغلال. وكان أولئك الداخلون المتطفلون هم قوات الاستعمار